﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [الشعراء: 29 - 33]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

مَـــن قـهـرتـه الحُجَّة؛ فرَّ إلى التهديد

"لمّا علِمَ فرعونُ أنَّه عليه السلام قد قطعه بما أوضح من الأمر، ووصل معه في الغِلظة إلى ما إنْ سكت عنه أوهنَ من حاله، وفتَّر من عزائم رجاله؛ تكلَّم بما السكوت أَولى منه، فأخبر الله تعالى بقوله: ﴿قَالَ﴾ عادلًا عن الحجاج بَعد الخوض فيه إلى المغالبة التي هي أبين علامات الانقطاع: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى﴾"[1]، وهذا شأن مَن قهرته الحُجَّة، وفيه كبرياء أن ينصرف عن الجدل إلى التهديد، فقال: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱتَّخَذْتَ﴾: (أخذ) أصلُ الأَخْذِ حَوْزُ الشَّيْءِ وجَبْيُهُ وجَمْعُهُ، قال الخليلُ: هو خِلافُ العطاءِ، وهو التَّناوُلُ[3]، والاتِّخاذُ: جَعْلُ شيءٍ لفائدةِ الجاعِلِ؛ لِأَنَّ المُتَّخِذَ يأخُذُ الشَّيءَ الَّذي يصطفيه، وهو مُبالغةٌ في الأخذ[4]، والاتِّخاذُ أيضًا: الاقْتِناءُ، يُقال: أَخَذَ الشَّيْءَ، يأخُذُهُ، أَخْذاً، أي: اقْتَناهُ، ويُطلَقُ على الاكْتِسابِ، يُقال: اتَّخَذَ فُلانٌ مالًا، يَتَّخِذُهُ، اتِّخاذًا: إذا كَسَبَهُ[5]، والمقصود بالاتِّخاذِ في الآية: جَعْلُ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 27.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 121.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أخذ).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/ 299، و30/ 55.
(5) الخليل، العين، وابن عباد، المحيط في اللغة، وابن الأثير، النهاية، وابن منظور، لسان العرب: (أخذ)، والمناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، ص: 37.

الشَّخص الشَّيءَ لنفْسِه، وفعلُه ﴿ٱتَّخَذْتَ﴾ للاستمرارِ، أي: أصررْتَ على أنَّ لك إلهًا أرسلكَ وأن تبقى جاحدًا للإله فرعونَ[1].

2) ﴿فَأْتِ﴾: أصلُ الإتيان مجيءٌ بسهولةٍ، ومنه قيل للسَّيل المارّ على وجهه: أَتيٌّ وأَتاويٌّ، والإتيان قد يقال للمجيء بالذّات، وبالأَمر، والتَّدبير[2]، وتقول: آتيته على ذلك الأمر مواتاة، إذا وافقتَه وطاوعته، والعامَّة تقول: واتَيْتُهُ، وآتاه إيتاء، أي أعطاه، وآتاهُ أيضًا، أي أتى به، ومنه قوله تعالى: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾ [الكهف: 62]، أي ائتنا به[3]، فالإتيان في الآية معناه: الإحضار.

3) ﴿فَأَلْقَى﴾: أصل (لقي) يدُلُّ على طَرْحِ شَيْءٍ[4]، واللَّقى: الشَّيْءُ المُلْقى المَنْبوذ[5]، والإلقاءُ: طَرْحُ الشَّيء حيث تلقاه، أي: تراه، ثمَّ صارَ في التَّعارف اسمًا لكلِّ طَرْحٍ[6]، ويُطلَقُ على الإفْضاءِ بالكلامِ ﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ [الشُّعراء: 223]، وعلى حصولِ الشَّيءِ في النَّفْسِ كأنَّ مُلقيًا ألقاهُ، أَي: مِنْ غير سَبْقِ تهيُّؤ: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ﴾ [المائدة: 64]، والمُراد بالإلقاء في الآية: رَمْي شَيءٍ في اليَدِ إلى الأرضِ[7].

4) ﴿ثُعْبَانٌ﴾: أصلُ (ثعب) يدُلُّ على امتدادِ الشَّيءِ وانبساطِه[8]، ومنه الثُّعبانُ: الحيَّةُ الضَّخمةُ الطَّويلةُ، وهو من القياسِ، في انبساطِه وامتدادِه خَلْقًا وحركةً[9].

5) ﴿وَنَزَعَ﴾: أصلُ (نزع) يدُلُّ على قَلْعِ شيءٍ وإزالته[10]، النَّزْعُ: الإزالةُ بعُنفٍ؛ لئلّا يبقى اتِّصالٌ بيْن المُزالِ وبيْن ما كانَ مُتَّصلًا به، ومنه ونزعُ اليَدِ: إخراجُها من القميصِ، ونزعُ العداوة والمحبَّة من القَلْب، والنَّزعُ عن الشَّيء: الكفُّ عنه، والنُّزوعُ: الاشتياق الشَّديد[11]،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 122.
(2) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (أتي)، والفيروز أبادي، بصائر ذوي التمييز: 2/ 43.
(3) الجوهري، الصحاح: (أتي).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لقي).
(5) ابن عباد، المحيط في اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (لقي).
(6) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ، والزبيدي، تاج العروس: (لقى).
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/ 123، و19/ 123.
(8) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (ثعب).
(9) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (ثعب).
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نزع).
(11) الراغب، المفردات: (نزع)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 193.

والمَنْزَعة، قوَّة عزم الرَّأْي والهمَّة، ويُقالُ للرَّجُل الجيِّد الرَّأْي: إنَّه لجيِّد المَنْزَعة[1]، وأمّا النَّزع في الآية فمقصود به: سلُّ شيءٍ ممّا يُحيطُ به، ومعناه: أخرجَ يده من جيب قميصه[2].

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

آيــةُ الـطُّـغـاة تقديمُ الانتقام عـــلى دحـــض البرهان

تُبيّن الآياتُ ما قاله "فرعون لموسى عليه السلام بِثورة وغضب: لئِن اتَّخذت إلهًا غيري - يا موسى - ليكون معبودًا لك مِن دوني؛ لأجعلنَّك واحدًا من جملة المسجونين في سِجني، فهذا شأني مع كلِّ مَن يتمرَّد على عبادتي، ويخالف أمري"[3].

فردَّ عليه موسى عليه السلام: "أتجعلني من المسجونين الذين تعذِّبهم، وتعاملني معاملتهم، حتى لو جئتُكَ بشيء هائلٍ عظيم موضِّحٍ لصدق دعوتي، مؤيِّد لرسالتي؟ فتحدّاهُ فرعونُ قائلًا: فائتِ بهذا الشيء؛ إن كنتَ صادقًا في دعواك أنَّك رسولُ ربِّ العالمين، وما أظنُّك إلّا كاذبًا فيما تدَّعيه"[4].

فجاء ردُّ موسى عليه السلام فرمى عصاه التي يحملها في يده، فتفاجأ فرعونُ وملَؤُه بتحوُّلها ثعبانًا ضخمًا مرعبًا، ولمّا سأله فرعون مزيدًا من الآيات؛ أدخل يده مِن فتحة قميصه المفتوحةِ إلى الصَّدْرِ، أو من تحت إبطه، ثم أخرجَها، فإذا هي بيضاءُ كالثَّلج من غير بَرَصٍ، مشعَّةٌ مثل الشمس، تجذب الأنظار إليها؛ لِشدَّة ما ينبعث منها من بَياض ونور.

وترشدُ الآياتُ إلى أنَّ أهلَ الكِبْرِ والعلو في الأرض، إذا أعيَتْهم الحُجج؛ لجؤوا إلى التهديد والوعيد واستخدام القوة، وترشد إلى

(1) الأزهري، تهذيب اللغة: (نزع).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 123.
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 10/ 242.
(4) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 7/ 1566.

إثبات المعجزات للأنبياء كمعجزة العصا واليد لموسى ﷺ، وإلى زعم فرعون أنَّه قد طمع في إضلال موسى ﷺ، وألّا يتخذ إلهًا غيره، وإلّا فقد تقرَّر أنَّ فرعون ومن معه، على بصيرة من أمرهم[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيِّ في التهديد الفِرْعوني:

تثويرُ الأذهانِ لسماعِ جوابِ أهل البرهان

فصلت جملة ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى﴾ عمّا قبلَها للاستئناف البياني، حيث تثير جملة ﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ في ذهن المتلقي سؤالًا: ما رَدُّ فرعونَ على تعريض موسى ﷺ لهم بِعدم العقل في قوله: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾؟ فتأتي جملة ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ وافيةً بحقِّ هذا السُّؤال، الذي يُلحُّ بقوة في هذا المقام المتوتر.

معنى اللام ودلالتها:

مِن المقامات والأحوال المقتضية للتوكيد حالُ المتكلِّم نفسِه

(اللام) في قوله تعالى على لسان فرعون: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى﴾ لامُ التوكيد المؤذنة بِقَسَم، "والمعنى: أنَّ فرعون أكَّد وعيده بما يساوي اليمين المجملة، كأن يكون فرعون قال: عليَّ يمين، أو بالأيمان، أو أُقسم"[2]، وتكشف (اللام) عمّا يعتلج في نفسه من الغيظ الناتج عن انتصار موسى ﷺ في مقام إثبات حُجَّة نبوَّته، التي شُهودُها جلساءُ فرعون، فـ (اللام) هنا دليلٌ على أنَّ مِن المقامات والأحول المقتضية للتوكيد حالَ المتكلِّم نفسه.

دلالةُ استعمال (إنْ):

عندَ الاستبدادِ يقعُ قانونُ الاستعباد

استُعمِلت أداة (إن) في قوله تعالى على لسان فرعون: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى﴾ بغرض تجاهلِ دَعوى موسى ﷺ، وإيحاء من فرعون بأنَّه يَعُدُّ ذلك كأنْ لم يكن؛ وذلك جريًا على عادة الطُّغاة

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 590، والجزائري، أيسر التفاسير: 3/ 645.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 121.

حين يتغابَون؛ لتفويت الفرصة على خصومهم، وكذلك إنكارٌ للواقع واستبعادٌ له؛ لأنَّ موسى ﷺ اتَّخذ إلهًا غيره فعلًا، وقد تحقَّق ذلك وفرعون يراه، ولم يُعُدَّ في حيِّز المستبعَد المشكوك، لكنَّها حالة الإنكار التي تَلفُّ الطُّغاة، حين يستبدّون بالعباد، ويعتادون إذلالَ العباد، فلا يستطيعون تصوُّرَ حصول ذلك مجرَّدَ تصوُّرٍ.

لطيفةُ التَّعبيرِ بالاتِّخاذ:

الاتِّخاذ يختصُّ بالاستمراريَّة

استعمل النظم الكريم الاتِّخاذ دون التَّعبيرِ بالأخذ في قوله تعالى على لسان فرعون: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى﴾، فإذا كان الأخذُ هو "التَّناوُل"[1]، والاتِّخاذُ الاستمرار على الشيء، "مثل الدار يتَّخذها مسكنًا، والدابة يتَّخذها قِعدةً"[2]، فإنَّ المقام هنا للاتِّخاذ لا للأخذ؛ إذ لا يَقصد فرعون تناوُل موسى ﷺ بيده إلهًا غيرَه، بل المقصود عبادة غيره، والاستمرار على ما يَغيظه، ويزعجه.

نكتةُ التَّعبيرِ بالماضي:

حين يُداهم الحقُّ أهلَ الباطل تَختلُّ موازينهم

جاء التعبير بالماضي ﴿ٱتَّخَذْتَ﴾ لبيانِ أنَّه قاصدٌ إلى توقُّف حصول الجزاء ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ على تحقُّق حصول الشَّرط ﴿ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى﴾، فيكون في ذلك إيحاءٌ بتغاضي فرعون عمّا حدث من موسى ﷺ وأنَّه سيؤاخذه، ويحاسبُهُ بدءًا من اللحظة، وأنَّه متى وقع منه اتِّخاذ إلهٍ غيره بعد ذلك؛ تَرتَّب عليه السَّجنُ والمعاقبة.

علَّةُ التَّعبيرِ بالألوهيَّةِ:

لمّا فهم فرعون مقصدَ تقريرِ الربوبيَّة لله تعالى؛ أعلن الألوهيَّةَ لنفسه

لمّا كان المقامُ مقامَ تقريرِ الألوهيَّة والعبودية سواء من موسى ﷺ لربِّه سبحانه وتعالى، أو من فرعون لنفسه المستعلية بزهوها وتكبُّرها، فالمقام مقامُ عبادةٍ وطاعة وخضوع؛ فناسب ذلك ذِكر

(1) ابن منظور، لسان العرب: (أخذ).
(2) العسكري، معجم الفروق، ص: 29.

الألوهيَّة على لسان فرعون، بعد تقرير الربوبيَّة على لسان موسى ﷺ، ففُهِمَ أنَّه يثبت الربوبيَّة ليصل إلى الطّاعة والخضوع، فسبقهُ بما فُهِمَ، فصرَّح بالألوهيَّة.

غرضُ تنكير ﴿إِلَٰهًا﴾:

في تنكير المفعول ﴿إِلَٰهًا﴾ في جملة الاتِّخاذ: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى﴾ مزيدُ تحذيرٍ لموسى ﷺ مِن اتِّخاذ أيِّ إلهٍ سوى فرعون، سواءٌ كان ذلك الإلهُ عظيمًا أم غير عظيم، جديرًا بالألوهية أم غير جديرٍ، فالتَّنكير إذًا يُفيد العموم؛ لأنَّ فرعونَ متوهِّم أنَّه إلهٌ، بل الإله الذي لا يُشارَك، وإلى ذلك فتنكيرهُ المفعولَ ﴿إِلَٰهًا﴾ يوحي بتعظيمه، وأنَّه - في زعمه - الإلهُ الوحيدُ الذي لا يسمح لأحد بالإشراكِ به - والعياذ بالله من الكفر وأهله.

إفـادةُ عـمـومِ الآلهة التي تقع تـحـت خـيـال البشر

لطيفة التقييد بلفظ ﴿غَيْرِى﴾:

قيَّد النَّظمُ الكريم تحذيرَ فرعون بلفظ ﴿غَيْرِى﴾؛ لبيانِ مدى غطرسة فرعون ووقوعه في الطُّغيان، فهو يرى ذاتَه وحدَها، وكلُّ ما سواها؛ فيدخل في حيِّز الأغيار.

بلاغةُ الإطنابِ في السِّجن:

آثر النَّظمُ الإطنابَ على الإيجاز في قوله تعالى على لسان فرعون: ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾، فلم يقل: (لأسجنَّنك)، مع أنَّها أوجز لفظًا في تأدية المراد، بل سلك طريقَ الإتيان بعبارات وألفاظ مترادفة زائدة على الأصل المراد لفائدة؛ إذ فيه الإيماءُ إلى حرية موسى ﷺ التي هو عليها، فإنَّ الجعْلَ تصييرٌ من حالةٍ إلى أخرى، مع لَمْحِ الحالتين، بينما لو ذكر فرعونُ السِّجنَ مباشرة؛ لما فُهِمَ منه الإشعار بحالة حرية موسى ﷺ السابقة للسجن، ففيه إشعارٌ بأنَّ رجوعَ موسى ﷺ عن اتِّخاذ إله سواه قد ينقذه من السِّجن المُهَدَّد به.

شـعـورُ الطُّغاة بـقـوَّة أهـل الحقِّ يَنضح في مـخـاصـمـتـهـم إياهم

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارع في فعل الجَعْلِ:

ممّا يُقرِّرُ أنَّ الجعلَ يستلزم معالجةَ التَّعبير بالمضارع: ﴿لَأَجۡعَلَنَّكَ﴾؛ ممّا يدلُّ على أنَّه يستفرغ فيه جهدًا، ويستغرق وقتًا يتجدَّد فيما سيكون في المستقبل القريب.

دلالةُ التَّوكيد في فعل الجعل:

غيظُ فرعونَ يَبرزُ في ثنايا النَّظم

ممّا يقرِّر المعنى السابق دعْمُ المضارعة بنون التوكيد الثَّقيلة في فعل جزاء ﴿لَأَجۡعَلَنَّكَ﴾؛ فهي تحكي تلك المعاناة التي يتوعَّد بها فرعونُ خصمَهُ موسى ﷺ وأنَّ سجنه لن يكون جعْلًا يسيرًا، بل سيكون جعْلًا أليمًا شديدًا، يوازي تَوَرُّكَهُ على ألوهيَّة الفرعون، ويكافئه، وأنَّه مؤكَّد لا شكَّ فيه، ولا تراجُع عنه ولا تنازُل.

معنى ﴿مِنَ﴾ ودلالتها:

المسجونون كثرٌ والموعودُ سجنٌ

﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ﴾ حرفُ تبعيضٍ، يُلمِح به فرعون لموسى ﷺ بيُسر جَعله إياه ﴿مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ﴾، وأنَّه ﷺ لا يعدو أن يكون واحدًا يَطويه السِّجن ضِمن كثيرين، أي: "لأجعلنَّك واحدًا ممَّن عرفت حالهم في سجوني"[1]، فـ"سلك فيه طريقة الإطناب؛ لأنَّه أنسبُ بمقام التهديد"[2].

دلالةُ التَّعريفِ في لفظ ﴿ٱلۡمَسۡجُونِينَ﴾:

"اللام في ﴿ٱلۡمَسۡجُونِينَ﴾ للعهد، أي: مِمَّن عرفت حالهم في سجوني، فإنَّه كان يَطرحهم في هوَّة عميقة حتى يموتوا"[3]، مع وجازة الأخير عنه.

غرضُ التَّعبيرِ بلفظ السِّجن:

رُبَّ قاتلٍ أرحمُ من حابس

في التَّعبيرِ بمفردةِ (السجن) تلويحٌ بما سيلقاه موسى ﷺ في

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 308.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 122.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 4/ 136.

غياهب الحبسِ من معاناة وعذاب، ممّا يُشعر بتفضُّلِه عليه بتركه يتنفَّس الحريَّة، ويتقلَّب في الأرض دون إذلالٍ، ففي ذِكر السجن إذًا تشديدُ التَّرهيبِ، وتذكيرٌ بصنوف العذاب التي هي من لوازم سجون الظالمين في كل جيل وقبيل، وبخاصَّة مَن يَبلغ بهم الخيال الجامح حدَّ ادِّعاء الألوهيَّة، كفرعون موسى ﷺ ولذلك "قال ابن عباس: وكان سجنه أشدَّ من القتل"[1].

علَّةُ فصلِ الجملة عمّا قبلها:

من البراعة استدراجُ الخصمِ إلى ما يُريدُ المُحاجِج

لا بدَّ من أنَّ تهديد فرعون السابق ﴿لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ﴾ أثارَ في نفس المتلقّي سؤالًا ملحًّا - وقد أغلق فرعونُ بابَ الحوار، وهربَ إلى التَّهديد والوعيد - فحواه: وبماذا ردَّ موسى ﷺ على هذا التَّحوُّل المفاجِئ من الحوار إلى التَّهديد؟ فجاء الجواب: ﴿قَالَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكَ بِشَيۡءٖ مُّبِينٖ﴾؛ فلمّا كانت الجملةُ الثانية هذه بمنزلة جوابٍ عن ذلك السؤال الثّائر في نفس المتلقّي؛ فُصِلت الثانية عن الأولى فصلًا لفظيًّا لِشبه اتِّصالهما معنويًّا، وذلك ما يسمّى بالاستئناف البياني.

بلاغةُ الاستفهام الداخل على واو الحال:

من أساليب الاستدراجِ في المناظرة استعمالُ السُّؤال المشوِّق

الهمزةُ في جملة مقول القول ﴿أَوَلَوۡ جِئۡتُكَ بِشَيۡءٖ مُّبِينٖ﴾ للاستفهام، المشوِّقة إلى ما لديه ﷺ من أمارات صِدقِه، وبها استطاع ﷺ استدراجَ فرعونَ إلى الاستماع إليه من جديد، بعد أن أغلقَ باب الحوار بالتهديد والوعيد، فالاستفهامُ عنصرُ إثارةٍ وتشويق، ومفتاح حوار جديد، يوارب بابًا كاد أن يغلقَ تمامًا، فاستَفْهَمَهُ "استفهامًا مشوبًا بإنكار واستغراب، على تقدير عدم اجتزاء فرعون بالشَّيء المبين، وأنَّه ساجِنُه لا محالة إنْ لم يعترف بإلهيَّة فرعون؛ قطعًا لمعذرته من قَبل الوقوع، وهذا التقدير دلَّتْ

(1) السمرقندي، بحر العلوم: 2/ 553.

عليه (لو) الوصليَّة التي هي لِفرض حالةٍ خاصَّة"[1]؛ لذلك يرى بعضُ المفسِّرين أنَّ "الاستفهام للإنكار"[2].

معنى الواو ودلالتها:

الـــواوُ لـلـحـالِ لبيانِ قوّة الإبانة في كـلام موسى عليه السلام

(الواو) في السؤال ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾ واو الحال، والتَّقدير: (أتجعلني من المسجونين حتى في حال إتياني إيّاك بدليل واضح على صدقي؟)، وليست الواو مؤخَّرة عن همزة الاستفهام؛ لأنَّ لحرف الاستفهام الصدارةَ بل هي لعطف الاستفهام، والعاملُ في الحال وصاحب الحال مقدَّران دلَّ عليهما قوله: ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ﴾، أي: (أتجعلني من المسجونين)[3]، وبهذا يقوّي موسى عليه السلام أسبابَ الاستدراج والإثارةِ وفتّح إطار جديد للكلام.

نوعُ (لو) ومعناها:

الـــصَّـــبرُ عـلى الخصْمِ حكمةُ العقلِ

توحي كلمة (لو) - لكونها حَرْفَ تمنٍّ يدلُّ على امْتِناعِ الفِعْلِ الثّاني مِن أَجْلِ امْتِناعِ الفِعْلِ الأوَّلِ - باستحالة قبولِ فرعون نتيجة الدليل مهما يكن؛ لذلك لَم يَتمالك فرعونُ إزاء هذا الإلهاب إلّا الخضوع: ﴿فَأْتِ بِهِۦٓ﴾، وذهب ابن عجيبةَ إلى أنَّ (لو) "ليست امتناعيَّةً، بل إغيائيَّةً؛ فلا جواب لها، أي: تفعل بي هذا على كلِّ حال، ولو جئتك بشيء مبين؟"[4].

دلالةُ التَّعبير بمفردة المجيء:

الألفاظُ المبهَمَةُ في الاستدراج للمناظَرة تُلهِب فضولَ الخصم

إذا كان المجيء في اللغة يُستعمل "في الأَعْيان والمعاني، وما يكون المجيءُ منه بِذاتِهِ وبأمرٍ"[5]؛ فإنَّ تعبيرَ موسى عليه السلام عن إحضاره - دليلُ صدقِهِ بـ (المجيء) - من شأنِهِ بثُّ مزيدٍ من التشويق إلى

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 122.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 10/ 243.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 122.
(4) ابن عجيبة، البحر المديد: 4/ 131.
(5) أبو البقاء، الكليات، ص: 34.

معرفته في نفس الخصم؛ وذلك لِما في دلالة مادة المجيء من احتمال أن يكون الشَّيء المبين جوهرًا أو معنى، واحتمال أنَّهُ يجيء بنفسه أو يؤمَر به، وواضح أنَّ ذلك ممّا أسهم في أسر نفس فرعون، وإخضاعه للاستمرار في المناظرة، إذ قال: ﴿فَأْتِ بِهِۦٓ﴾.

لطيفةُ تعدية فعل المجيء بنفسِه:

توريـطُ فرعـون في قبول مواصلة المناظرة

في تعدية الفعل (جئت) بنفسه - من قوله: ﴿جِئْتُكَ﴾ بدون حرف تعدية - مزيدُ توريطٍ لفرعون في قبول مواصلة المناظرة؛ إذ في ﴿جِئْتُكَ﴾ تصريحٌ بأنَّه هو المعنيُّ بهذا المجيء.

معنى الباء ودلالتها:

يجبُ أن يكونَ الدَّليلُ مصاحبًا للحجَّة

(الباء) في القيد بالجار والمجرور من قوله: ﴿بِشَيْءٍ﴾ هي باء المصاحَبة أو الاستعانة، أي: أولو جئتك مصطحبًا الدَّليلَ القاطع بصدق دعواي؟ أو أستعين به على تصديقك وإقناعك؟ أو أَتَيتك به عن قرارك القاضي بجَعْلي من المسجونين؟ أو أبَيِّن به خطأك في التقدير والحُكم؟

نكتةُ استعمال ﴿بِشَيْءٍ﴾ وتنكيره:

التشويقُ بالإبهام من عوامل استدراج الفضوليّين

جاء التعبيرُ في سياق المناظرة بمفردة ﴿بِشَيْءٍ﴾؛ لِما فيها من إبهامَين: إبهام الشيئيَّة المطلَقة، وإبهام تَنكيرها ﴿بِشَيْءٍ﴾؛ إذ المنتَظر حينئذٍ أنْ يقول - مثلًا - أولو جئتك بدليلٍ مُبين؟ أو حُجَّة قاطعة؟ أو معجزة بيِّنة؟، وما إلى ذلك، لكن آثر "التَّعبير عنه بالـ (شيء) للتَّهويل"[1]، وفي ذلك الإبهام "تفخيمٌ مِن أمرها، ولعلَّ مقصد موسى ﷺ بهذا الكلام، أن يجرَّ فرعون مرَّةً أخرى إلى الحديث في شأن الرسالة التي جاءه من أجلها، بعد أن رآه يريد أن يُحوِّل مجرى الحديث عنها إلى التهديد والوعيد، وأن يَسُدَّ منافذ الهروب عليه أمام قومه"[2].

(1) ابن عجيبة، البحر المديد: 4/ 132.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 10/ 243.

نكتةُ وصف الشَّيء بـ ﴿مُّبِينٍ﴾:

الـجـمـعُ بين إبـهـام الـشَّيء وصـفـةِ الإبـانـة يقود فرعونَ إلى الإذعان

آثرَ النَّظمُ الكريم وصف (شيء) بلفظ ﴿مُّبِينٍ﴾، أي: "يبيّن ربوبيَّةَ الله وألوهيَّته، أو ما يبيّن أنّي رسولُ الله"[1]، ومعنى ﴿مُّبِينٍ﴾، أي: "ظاهر واضح في غاية الجلاء والوضوح والعظمة"[2]، فصفةُ ﴿مُّبِينٍ﴾ تُسهم في جذب انتباهِ الخصم نحو الشَّيءِ، فهو جمعٌ بين إبهام الشيء، ووصفه بالإبانة؛ ليكون أدعى لمعرفته، ويقلِّل من احتماليَّة رفض مجيئه أمام الملأ، فإنَّ ذلك سيُحدث عليه جَلَبَةً، وسيُثير النّاس عليه؛ بسبب ما سيظهر عليه من مظهر الضعفِ والخور، فكان لا بدَّ من الإذعان.

علَّةُ فصل جملة مقول فرعون:

السَّـرد الـقـرآنيُّ يـجـمـع أطـراف الـمـحـاورة كـأنَّـها جملة واحدة

فُصِلت جملة: ﴿قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾؛ لما تثيره الجملة السابقة من أسئلةٍ عن موقف فرعونَ من عرض موسى ﷺ، فتتصاعد حِدَّة المُناظرة، ويَتجاذب الطرفان طرفَيْها، وبينما يترقَّب المتلقّي، ويتطلع أثَرَ كلِّ مجاذَبةٍ بسؤال يترتَّب عليها، ويثور في نفسه، حتى لَكأنَّ تلك المحاورةَ كلَّها جملةٌ واحدة، ونَفَسٌ واحد، ففرعونُ "قد عرف أنَّه رسول، وأنَّه ليس بإلهٍ على ما ادَّعى، وأنَّ الإله غيرُه حيث طلب هذه الآية"[3].

بلاغةُ الفاءِ الفصيحة:

حـشْـدُ عـنـاصـرِ الإثـــارة يـقـود الـخَـصـم إلى مقصدِ خصمِهِ

يأتي ردُّ فرعونَ على عرْضِ موسى ﷺ بفاء التفريع "الفصيحة، أي: إنْ كنت صادقًا في دعواك؛ فائْتِ"[4]، والفاءُ الفصيحة هيَ التي تقع بعد كلام يفيد غرضًا من الأغراض، فتوزَن بشيء مقدَّر كشرطٍ، فتكون تلك الفاءُ رابطةً لجوابهِ لقصد الإيجاز، وقد يكون المقدَّر غيرَ

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 8/ 56.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 139.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 8/ 56.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 66.

شرط في كلام آخر[1]، والفاءُ هنا على سبيل المطالبة الفورية ﴿فَأْتِ بِهِۦٓ﴾؛ ممّا يدُلُّ على نجاح عناصر التشويق في عبارة موسى ﷺ ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ﴾ يدلُّ على نجاحها في كسر عناد فرعون، وتطويعِهِ نحو رغبة موسى ﷺ في إنهاء الحوار إلى أقصاه.

غرضُ الأمر في ﴿فَأْتِ بِهِۦٓ﴾:

لا يمكنُ لطاغيةٍ أن يتجرَّد مِن هواه في مناظرته أهلَ الحقِّ

برغم انجذاب فرعونَ واستجابة وعيه الداخلي لِعَرْض موسى ﷺ: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ﴾، وطلب فرعون ذلك على وجه الفورية ﴿فَأْتِ بِهِۦٓ﴾، "أي: إنّا لن نسجنك حينئذٍ"[2]، فبرغم ذلك يُظهر فرعونُ في مطلبِهِ ﴿فَأْتِ بِهِۦٓ﴾ معنى التَّعجيز لِموسى ﷺ فقوله: ﴿فَأْتِ بِهِۦٓ﴾ أمرٌ غرَضُهُ التعجيز، وبيان ضحالة الشَّيء المبين ذاك، وأنَّه لن يُجدي بيانًا ودليلًا، وبهذا يُرهص فرعونُ بتكذيبِهِ موسى ﷺ مبكِّرًا، قبل أن يَرى المعجزة، أو يعرف نوعها، وتلك شِنشنةُ أهل الباطل إزاء أدلَّة أهل الحق، وفعلًا تحقَّق تكذيبُه بعد أن رأى تلك المعجزات، ولم يُذعِن للحقِّ في معجزتَي العصا ولا اليد، فـ "فرعونُ لا يملك أمام موسى ﷺ إلا أنْ يقول له: ﴿فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾"[3].

دلالةُ استعمال لفظ الإتيان بعد لفظ المجيء:

اختلافُ الاستعمال يُشير إلى تباين النّاس

لمّا كان الفعل "(يأتي) أخفَّ مِن (يجيء)، وكذا الأمر: ﴿فَأْتِ﴾، ﴿فَأْتِنَا﴾ [الأعراف: 70]، ﴿فَأْتُواْ﴾ [القصص: 49]؛ لأنَّ إسكانَ الهمزة ثقيلٌ لتحريك حروف المدِّ واللين، تقول: جِئْ أثقل من ائْتِ"[4]؛ جاءَ التعبيرُ بمفردة الإتيان، وفي ذلك كنايةٌ عن الرغبة في سرعة الإتيان بذلك بالشيء المبين، وهكذا يوزِّع النظم الكريم مفردتَي (المجيء) و(الإتيان)

(1) ابن عاشور، جمهرة مقالات ورسائل الشيخ الإمام محمد الطاهر ابن عاشور: 1/ 64.
(2) الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل: 3/ 324.
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 10/ 243.
(4) الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 4/ 80.

بين موسى عليه السلام واللَّعين ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ﴾ ... ﴿فَأْتِ بِهِۦٓ﴾؛ ليترجمَ في التعبير بهما ما وراء كلٍّ منهما من إشارات مقصودة.

نكتةُ استعمال أداة ﴿إِن﴾:

كفَّةُ التشكيك في صدق الرسول تقابلها كفَّةُ احتمال الصدق

استُعملت أداة ﴿إِن﴾ في جملة الشرط ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، والمعنى: (إنَّ صدقك في الإتيان بشيء مبين أمرٌ مستبعد، مشكوك فيه)، وفي ذلك حكم سابق على نبيٍّ مؤيَّد من ربِّه، يفضح الطبيعة البشرية المختلة عند المتكبِّر المغرور، "وهذا قد استبقاه كلام فرعون إلى ما بعد الوقوع والنزول؛ ليتأتَّى إنكارُه إنِ احتاج إليه"[1]، فقوله تعالى: ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ يُفيد أنَّه لا يأتي "بالمعجزة إلّا الصادق في دعواه؛ لأنَّ المعجزةَ تصديقٌ من الله تعالى لِمُدَّعي النبوَّة، والحكيم لا يُصَدِّق الكاذب"[2]، وهذا قد جعله فرعونُ في معرض الشكِّ، وهو لا يدري أنَّه أعطى في المقابل احتمال الصدق.

معنى ﴿مِنَ﴾ ودلالتها:

التَّقليلُ من شأن صدق موسى عليه السلام

﴿مِنَ﴾ في جملة: ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ تبعيضيَّةٌ، ترمي إلى التقليل من شأن صدق موسى عليه السلام، وأنَّه عليه السلام إنْ صدق في الإتيان بشيء مُبينٍ؛ لا يعدو أن يكون فردًا من كثيرين يصدقون.

بلاغةُ استعمال مفردة الصدق:

التشكيكُ في صِدق الخَصم دون بيِّنةٍ حجَّةٌ مُفْلِسة

لمّا كان غرضُ فرعونَ هدْمَ دعوةِ موسى عليه السلام من أساسها؛ سلَّط التشكيك على أهمِّ ما يضمن لها النجاح، وهو (صدقه)، فقال: ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، فنفث أمام الملأ تشكيكه في ثبوت صدقه، ثم شكَّك في أصالة صدقه عليه السلام وقدَمه فيه إن ثبت هذه المرة - وذلك من صبِّ التشكيك بـ ﴿إِن﴾ على ﴿ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ مادَّةً لغوية وصيغةً صرفية، أخزاه الله تعالى.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 123.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 309.

لطيفةُ حذف جواب الشرط:

توجيهُ المتلقّي إلى مضمون الشَّرطِ

لم يُذكر للشَّرط في قوله: ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ جوابٌ؛ "لأنَّ الأمر بالإتيان به يدلُّ عليه"[1]، فـ"جواب الشَّرط مقدَّر، أي: فأحضره"[2]، فممّا يُلمِح إليه حذفُ جواب الشَّرط هنا توفيرُ عناية الحضورِ - جلسائِهِ - على إشارةِ التشكيك في صدق موسى ﷺ، وعدم شَغْلهم عن ذلك التشكيك الخبيث بجوابٍ يُغني عنه الأمر ﴿فَأْتِ بِهِۦٓ﴾.

نوعُ الفاءِ في الإلقاء ودلالتها:

إذا هبَّت رياحُ البيان؛ فاقتنص عقولَ المخاطَبين

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ﴾ للتَّفريع، فكان بإمكان موسى ﷺ إلقاء عصاه ابتداءً، وترويع فرعون بالثُّعبان، لكنَّه كان سيغلق باب الحوار ابتداءً قبل فتحه، وليس ذلك من الفطانة التي يتحلَّى بها رُسُل الله تعالى، فعالج موسى ﷺ المقامَ، وروَّض شراسة فرعون وهيَّأه، حتى استنطقه بطلب المعجزة بنفسه ﴿فَأْتِ بِهِۦٓ﴾، فبادر بعد ذلك بأن ألقى عصاه تفريعًا على أمر فرعون.

دلالةُ التَّعبيرِ بالإلقاء:

اعتناءُ المناظِر بأدواتِهِ ضروريٌّ لإنجاح مهمَّته

في التعبيرِ بمفردة الإلقاء في قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ﴾ دون لفظ الرمي أو القذف، إيماءٌ إلى اعتناء موسى ﷺ بأمر العصا؛ فإنَّه ألقاها بلطفٍ، ولم يَرْمِها، أو يَقذفها؛ فالقَذْفُ الرَّمْيُ بقوَّة، والرمي بالحجارة[3]، والرَّمْيُ فيه معنى الاستهانة بالمَرْميِّ، فجاء التعبير بالإلقاء لملاحظة اللُّطف والعناية عند الإلقاء.

نكتةُ استعمال لفظ العصا:

انقلابُ العصا ثعبانًا وقعُهُ مهولٌ في أعين المبصرين

في التَّعبير بمفردة (العصا) في جملة ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ﴾ إيحاءٌ بِصغر حجمها، حتى إذا انقلبت ثعبانًا؛ ظهرتِ الفوارقُ غيرُ المتوقَّعة

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 310.
(2) الكرماني، لباب التفاسير: 1/ 1824.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (قذف).

للخصوم المتربِّصين، وكلَّما كانت المفاجآت أعظمَ؛ كان تأثيرها أبلغَ، ذلك عند الأسوياء الباحثين عن الحقِّ والحقيقة، أمّا أمثالُ فرعونَ ومَلَئِهِ؛ فقد أَرْهصَ حُكمُه السابقُ بالشكِّ في صِدق موسى عليه السلام بِقراره، مهما رأى مِن عظمة الدَّليل والمعجزة.

فائدةُ التَّعريف بالإضافة:

نـصـرُ المؤمـنـين بسبب عظمةِ النّاصر لا عظمة أداة النَّصر

في التعريف بالإضافة في ﴿عَصَاهُ﴾ بيانٌ لدلالةِ صِغَرها والتَّهوين من أمرها في الظاهر، أما التَّعريف بـ(أل) - لو قيل في غير القرآن الكريم: (فألقى العصا) - فإنَّه يضفي عليها فخامة، وكمالًا وعِظمًا غير مقصود في هذا المقام، كأنَّه قال: ألقى أمرًا يسيرًا؛ لا يعدو أن يكون عصاه.

معنى (الفاء) مع (إذا) الفجائيَّة ودلالتها:

ممّا يُسهِم في بيان تَلاحُق الأحداث وسُرعة المفاجآت استعمالُ النَّظم الكريم مع (إذا) الفجائيَّة (الفاءَ) التي هي للتَّعقيب والعطف[1]؛ لانقلاب صورةِ العصا الجديدة في صورة ﴿ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ عن حالتها الأولى المتمثِّلة في ﴿عَصَاهُ﴾ المعهودة في استعمالاتها المعتادة.

دلالة (إذا) الفجائيَّة:

الفرارُ إلى ملجأٍ منقذٍ لأهل الباطل يُثير شكوك النّاس حولهم

ممّا يسهم في سرعة المفاجآت ضميمة (إذا) الفجائيَّة إلى الفاء التعقيبيَّة في جملة: ﴿فَإِذَا هِيَ﴾، ممّا يترجم بدقَّة عالية واضحة سرعةَ الحدث، وأخْذةَ المفاجأة التي شُدِهتْ فيه أنظار الحاضرين ودهشت.

وقد زَلزلهم هولُ المفاجأة من دواخلهم زَلزلة لم تدع لهم فرصة التَّدبير والكيد، ممّا ألجأهم إلى فَضِّ هذا المجلس الضاغط؛ هروبًا إلى الأمام بِطلب تحديد موعد آخر للمنازلة في إطار ما نبَّههم إليه

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 3/ 421.

زعيمهم فرعون من السِّحر، وريثما يتدبَّرون أمرهم، ويجمعون كيدهم، لكنها الفرصة التي فيها العنايةُ الإلهية، التي دبَّرها الله تعالى لنبيِّه موسى عليه السلام.

نكتةُ تقديمِ ضمير الفَصْل:

مهما تجلَّى الحقُّ للطغاة؛ غالَطوا فيه، وكابَروا

من مقتضيات (إذا) الفجائيَّة تقديمُ ضمير الفَصْل ﴿هِيَ﴾ - الذي يقعُ مرفوعًا مطابقًا لما قبله تكلُّمًا، وخطابًا، وغيبة، وإفرادًا - على الخبر ﴿ثُعْبَانٌ﴾؛ حيث إنَّ المفاجأة تتعلَّق بِتحوُّل ذاتِ العصا إلى ذاتٍ أخرى، وذلك لا يكون بِقُدرة موسى عليه السلام، وكانوا يعيشون زمانَ السِّحر والسَّحَرة، والسّاحر مبجَّل مقدَّم فيهم، ويَدرون أنَّ هذا التحوُّل خارج تلك الحدود بمراحل، لكنَّه الكذِب والمغالَطة والمكابَرة، التي تأبى لِمثل فرعون أنْ يُقِرَّ لموسى عليه السلام بِصدقٍ، ويقرُّ بِصدق معجزته، فيحملُهُ الطغيان على النُّكران.

علَّةُ تنكيرِ ﴿ثُعْبَانٌ﴾:

نُكِّر لفظ ﴿ثُعْبَانٌ﴾؛ ليُضفي عليه عِظمًا وخُطورة ومهابة، ويوحي بأنَّه ﴿ثُعْبَانٌ﴾ من صنفٍ لا عهد لهم بِهَوْلِهِ وفظاعته، وحُقَّ له ذلك، فهو معجزة نبيٍّ.

إيحاءُ الإيقاع في لفظ ﴿ثُعْبَانٌ﴾:

لِلَفظ (ثعبان) إيحاءاتٌ مرعبة مزعجة

لِلفظ ﴿ثُعْبَانٌ﴾ إيحاؤُهُ المعنويُّ، فهو من أصل يدلُّ على امتداد الشيء وانبساطه، يكون ذلك في ماء وغيره، من ثعبتُ الماءَ، وأنا أثعبه؛ إذا فجَّرتَه؛ فانثعب، كانثعاب الدَّم من الأنف، ومنه اشتُقَّ مثعب المطر، وممّا يصلح حمله على هذا، الثُّعبان: الحيَّةُ الضخم الطويل، وهو من القياس، في انبساطه وامتدادِهِ خَلْقًا وحركةً[1].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ثعب).

وله دلالتُهُ المخيفة، وعند تتبُّع اشتقاقات المادَّة اللغوية التي تجمع حرفَي الثاء والعين، يثبت أنَّهما يشيران إلى معاني التحيُّل والروغان؛ إذا اجتمعا، فللثّاء مع العَين خاصَّة التلوُّن والتحيُّل والإرهان[1]، يقال: ثَعَّ يثِعُّ - من باب (ضرَب) ثعًّا، أي: قاء ما أكله، وانثعَّ الأكلُ من فمِهِ، والدَّمُ من أنفهِ أو جُرحهِ، أي: انصبَّ، وثَعَبَ عليهم الغارة: شنَّها، وثَعَبَ البعيرُ شقشقته: أخرجها، وثَعَلت أسنانه تَثْعَل - من باب فَتَح - ثَعَلًا: تراكبت إحداها على الأخرى، فهو أثعلُ، وفيه معنى التلوُّن والتحيُّل، وأثعلَ الأمرُ: عظُم وتفاقم، والثُّعْل - بضمِّ الثاء المشددة - دوَيِّبة تظهر في السِّقاء؛ إذا خبُثت ريحُهُ، وثُعالة: علمٌ على أنثى الثَّعلب لا ينصرف، وثَعْلب وتثعلب: راغَ، أو تشبَّهَ بالثَّعلب في روغانه، والثَّعْلب حيوان مشهور بالتحيل والرَّوغان، يتساقط شعرُهُ كلَّ سنة، وبالجملة فهذه المادةُ ظاهرة الثعلبة والثعبانية[2].

نكتةُ وصفِ ﴿ثُعْبَانٌ﴾ بـ ﴿مُّبِينٌ﴾:

وصفُ ﴿ثُعْبَانٌ﴾ بـ ﴿مُّبِينٌ﴾ يَنفي عنه شُبهة التَّخييل، ويُقرِّر ثعبانيَّته الحقيقية، ويؤكِّد يقينَهم بِأَنَّهُ حقًّا ﴿ثُعْبَانٌ﴾ لا خيالات ولا شعوذات، ووصف ﴿مُّبِينٌ﴾، أي: "ظاهر الثعبانيَّة، لا شيء يشبه الثُّعبان، كما تكون الأشياء المزوَّرة بالشعوذة والسِّحر"[3].

دلالةُ صيغةِ ﴿مُّبِينٌ﴾:

دفْعُ توهُّمِ المجاز في لفظ ثعبان

توحي صيغة ﴿مُّبِينٌ﴾ بتألُّق الثُّعبان، وأنَّه مِن تلقائه كاشِفٌ عن خصائص الإعجاز فيه، وأنَّه قد أراهم ما يَستدلون به على صدق المعجزة، وصدق رسالة موسى ﷺ وهو "اسم فاعل من أبان القاصر الذي بمعنى بان، بمعنى ظهر، فـ ﴿مُّبِينٌ﴾ دالٌّ على شدة الظهور، من

(1) "يقال: أرهنُ أولاده، أي: أخطرُهم"، يُنظر: اليمني، نشوان بن سعيد، شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم: 4/ 2661، "وإرهانُ الشَّيْء إثباتُهُ وإدامتهُ"، يُنظر: الأزهري، تهذيب اللغة: (رهن).

(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 68.

(3) الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: 3/ 310.

أجل أنَّ زيادة المبنى تدلُّ على زيادة المعنى، أي: ثعبانٌ ظاهرٌ، أنَّه ثعبانٌ لا لبس فيه ولا تخييل"[1].

نكتةُ تقديمِ إلقاء العصا على نزع اليد:

معجزةُ العصا أعجَبُ، فكانت بالتقديم أليقَ

لا ريب أنَّ كلتا المعجزتين: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ﴾، ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾ خارقتان للعادة، غير أنَّ انقلاب العصا كائنًا حيًّا مهيبًا خطيرًا - وهي قطعة مِن خشب ميت، أو قضيب جافٍّ من قضبان شجرة - آخذٌ للألباب، وأنَّه المعجزة الأعظم لِما فيه مِن خصيصة التخويف، ومضارِّ التسميم، فذلك ما أهَّلَ تلك المعجزة العظيمة للتَّقديم على معجزة ابيضاض اليد وإشعاعها مع عظمة الأخرى، وتقديم المعجزة المنفصلة على المعجزة المتَّصلة أولى بالمقام؛ لدفع تهمة التَّلاعب باليد.

بلاغةُ العطف بالواو في فعل النَّزع:

تداخُلُ المتعاطِفَين حتى لَكَأنَّهما وقَعا دُفْعةً واحدة

(الواو) في جملة ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾ للعطف، حيث تَجْمَعُ لموسى عليه السلام معجزتين عظيمتين، وسياق الأحداث هنا يمنح الفعلين ترتيبًا؛ إذ إلقاءُ العصا كان أوَّلًا، على إثر طلب فرعونَ، ثم نزْع اليد، فالواو هنا تتضمَّن فورية (الفاء) إلى درجة أنَّها تُداخل الحدَثَيْن، كأنَّهما وقعا من موسى عليه السلام معًا.

بلاغةُ استعمالِ مفردةِ النَّزْع:

تصويرُ مشهدِ المعجزةِ كأنَّها حاضرةٌ أمام المخاطَب

آثرَ النَّظمُ الكريم استعمالَ مفردة النَّزْع في قوله تعالى: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾، والنزع: سلُّ شيءٍ ممّا يحيط به، ونزعُ اليد: إخراجُها مِن القميص، فلِذلك استغنى عن ذكر المنزوعِ منه، وهو مكان النَّزع لِظهوره، أي: أخرجَ يده مِن فتحة قميصِه المفتوحة إلى الصَّدْرِ، أو من تحت إبطه[2].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 123.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 123، ونخبة من العلماء، التفسير الميسّر، ص: 368.

فالتَّعبيرُ بمفردة النَّزع يوحي بجلال الحدَثِ، حتى لكأنَّ إخراجَ يدِهِ مِن تحت إبطِهِ أو من جيب قميصهِ نزْعٌ شديدٌ بقوَّة؛ أضفى على ذلك الحدث تفخيمًا وتعظيمًا؛ لأنَّه ليس حدثًا اعتياديًّا، بل معجزة كبرى، وقد كان موسى ﷺ رجلًا أسمرَ اللون[1]، فإذا خرجت يَدُهُ بيضاء مشرقة؛ كانت المفارقةُ كبيرةً، والمعجزة عظيمة.

معنى الفاء ودلالتها:

التَّعقيبُ والعطفُ المتضمِّنُ السرعة والمفاجأة

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ﴾ مع أداة المفاجأة (إذا) توازي في عطائها ودلالتها (الفاء) مع (إذا) في الجملة السابقة: ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ﴾، فكلتا المعجزتين مفاجأتان كُبريان، تأخذان بالعقول والقلوب؛ لذا كان عُنصرُ السُّرعة والمفاجأة فيهما وبهما آسرًا.

دلالةُ (إذا) الفجائيَّة:

التَّهرُّبُ من مقارعة الدَّليلِ بالدَّليل من صفات الفراعين المهزومين

ممّا يُسهم في بيان سرعة المفاجآت ضميمةُ (إذا) الفجائية إلى (الفاء) التعقيبية في جملة ﴿فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ﴾؛ لأنَّها دلَّتْ "على سرعة انقلاب لون يده بياضًا"[2]، ممّا يترجم بدقَّةٍ ظاهرة واضحةٍ سُرعةَ الحدَث، وأخْذ المفاجأة الَّتي شَدَهَتْهُم.

وكما زلزلهم هولُ المفاجأةِ حين انقلبت العصا حيَّةً، كذلك أذهلهم انقلابُ سواد بشرة يده ﷺ بياضًا مشعًّا كالشمس، ممّا أكَّد لجوءَهُم إلى فَضِّ المجلس فورًا، والهروب إلى تحديد موعد آخرَ للمقارعة، ريثما يتدبَّرون أمرهم، ويجمعون كيدهم، لكنَّها الفرصة الَّتي دبَّرها الله تعالى لنبيِّه موسى ﷺ.

(1) إذ وصفه النبيُّ ﷺ ليلة الإسراء بقوله: «رَأَيْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بي مُوسى رَجُلًا آدَمَ طُوالًا جَعْدًا، كَأَنَّهُ مِن رِجالِ شَنُوءَةَ»، أخرجه البخاري، الصحيح، الحديث رقم: (3239)، ومسلم، الصحيح، الحديث رقم: (165)، فهو ﷺ أسمر، طويلٌ، غيرُ مسترسل الشعر، يشبه رجال شنوءة من قبيلة الأزد القحطانية.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 124.

دلالةُ تقديمِ ضمير الفَصْل:

دلَّ تقديمُ ضمير الفصل ﴿هِيَ﴾، المرادُ به اليدُ في جملة ﴿فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ﴾ على التَّنويه بشدَّة أسرها لِمن رآها، وعظمة عطاء المعجزة فيها، ولا شكَّ أنَّه ليس مَن رآها كمن سمع بها.

نوعُ (اللام) ودلالتها:

التعدية أو الظرفيَّة متعلّقان للّام

(اللام) في قوله تعالى: ﴿لِلنَّٰظِرِينَ﴾ يجوز أن تكون لامَ التَّعدية، أي: اتِّصال متعلِّقها بمجرورِها، ويجوز أن تكون اللّامُ ظرفيَّةً بمعنى (عند)، ويكون الجار والمجرور ﴿لِلنَّٰظِرِينَ﴾ حالًا[1].

بلاغةُ استعمالِ مفردة النَّظر:

شأنُ معجزاتِ الأنبياء أن تكون خارقةً؛ لا عهد للمدعوّين بمثلها

التَّعبيرُ بـ (النظر) دون (البصر) - في قوله تعالى: ﴿لِلنَّٰظِرِينَ﴾ مع صياغته باسم الفاعل - يوحي بأنَّ بياضَ يدِه ﷺ كان يَجذب الأنظارَ بقوَّةٍ؛ لخروجه عن الإلْفِ والعادة، ويشدُّ من يراه، فيديم النظر لهذا التحوُّل اللوني، ويطيل التدبُّر فيه، وذلك من عطاء صيغة (الفاعل) في ﴿لِلنَّٰظِرِينَ﴾ "بياضها ممّا يقصدُه الناظرون لأعجوبتِه"[2]؛ ممّا يوحي بتفرُّده وتمايزه عن كلِّ بياض؛ ذلك أنَّه بياضُ إعجازٍ، فلا شكَّ أنَّه ممّا لا عهد ﴿لِلنَّٰظِرِينَ﴾ برؤية مثله، وفيه إيماءٌ إلى أنَّه "دليل على أنَّ بياضَها كان شيئًا يَجتمع النَّظّارة على النظر إليه؛ لِخروجه عن العادة، وكان بياضًا نوريًّا"[3].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المجيء والإتيان:

المجيءُ للجواهر والأعيان، والإتيانُ للمعاني والأزمان

"(جاء) يقال في الجواهر والأعيان، و(أتى) يقال في المعاني والأزمان، ولهذا ورد في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 124.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 124.
(3) الزمخشري، الكشاف: 3/ 310.

بَعِيرٍ﴾ [يوسف: 72]، ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍۚ﴾ [يوسف: 18]، ﴿وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَۚ﴾ [الفجر: 23]، وأتى في قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: 1]، ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا﴾ [يونس: 24]"[1].

و(أتى): تُستخدم في الشَّيء الذي فيه يُسْرٌ وسهولة، و(جاء): تُستخدم في الشيء الذي فيه مَشَقَّةٌ وصُعوبة، ففي قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾﴾ [النازعات: 34]، و﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾﴾ [عبس: 33]، عبَّرت الآياتُ السابقة عن يوم القيامة وحضوره بـ (جاءت)، أمّا في ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴿١﴾﴾ [الغاشية: 1]؛ فعَبَّرت الآية عن الكلام: حول يوم القيامة، والكلام يسير، ولم تُعبَّر عن الحضور، أو الوقوع، ولذلك عَبَّرت بـ ﴿أَتَىٰكَ﴾ [الغاشية: 1]"[2].

الإلقاء والرَّمي:

الإلقاءُ خاصٌّ بالمحسوسات، والرَّمي عامٌّ فيها وفي المعنويات

"الإلقاءُ: طَرْحُ الشَّيء حيث تلقاه، أي: تراه، ثم صار في التَّعارف اسمًا لكلِّ طرحٍ، قال تعالى: ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾﴾ [طه: 87]"[3]، و"الرَّمْيُ يقال في الأعيان كالسَّهم والحجر، نحو: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: 17]، ويقال في المقال، كنايةٌ عن الشَّتم كالقذف، نحو: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ﴾ [النور: 6]"[4].

السِّجن والحبس:

السِّجنُ الحصرُ في ضيق، والحبسُ مطلق المنع عن الوجهة

السِّجْنُ المَكانُ يُسْجَنُ فيه الإنْسانُ، والسَّجْنُ: المَصْدَرُ، سَجَنَهُ يَسْجُنُه سَجْنًا، أي: حَبَسَهُ، والسَّجّانُ: صاحبُ السِّجْنِ، ورَجُلٌ سَجِينٌ: مَسْجون، والسِّجّينُ: الصُّلب الشَّديدُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وقَوْلُهُ تَعالَى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾﴾ [المطففين: 7] قيلَ: المَعْنَى:

(1) عقيلة، محمد بن أحمد، الزيادة والإحسان في علوم القرآن: 8/ 214.
(2) فهد سالم الكندري وآخرين، أول مرة أتدبر القرآن، ص: 293.
(3) الراغب، المفردات: (لقى).
(4) الراغب، المفردات: (رمى).

أَنَّ كِتابَهُمْ في حَبْسٍ لِخَساسَةِ مَنْزِلَتِهِمْ عِنْدَ اللّه ﷻ وقيلَ: في سِجّينٍ في حَجَرٍ تَحْتَ الأَرض السّابِعَةِ[1].

و"الحَبْسُ: ضدُّ التخلية"[2]، قال ابن تيمية رحمه اللّه: "الحَبْس الشَّرْعيُّ لَيْسَ هوَ السِّجْن في مَكان ضَيِّقٍ، وإنَّما هوَ تَعْويقُ الشَّخْصِ ومَنْعُهُ مِنَ التَّصَرُّفِ بِنَفْسِهِ حَيْثُ شاءَ، سَواءٌ كانَ في بَيْتٍ، أَوْ في مَسْجِدٍ، أَوْ كانَ يَتَوَكَّلُ نَفْسَ الغَريمِ أَوْ وكيلَهُ عليْهِ، ومُلازَمَتُهُ لَهُ"[3].

الثعبان والحية:

الثُّعْبان الحيَّةُ الضخمُ الذَّكرُ، والحيَّة عامَّة تطلق على جميع الأفاعي

"الحَيَّةُ الأَفْعَى تُذَكَّرُ، وتُؤَنَّثُ، فَيُقالُ: هوَ الحَيَّةُ، وهيَ الحَيَّةُ"[4]، و"الحَيَّةُ: اشْتِقاقُها من الحَياةِ، وأَصْلُها: حَيْوَةٌ، وسُمِّيَتْ حيَّةً؛ لأَنَّها تَتَحَوّى في التوائها، وأَرْضٌ مَحْواةٌ ومَحْياةٌ: كثيرةُ الحَيّاتِ، والحَيّوتُ: ذَكَرُ الحَيّاتِ، والحَيَواتُ: جَمْعُ الحَيَّةِ"[5]، والثُّعْبان: الحيَّة الضَّخم، الطَّويل، الذَّكرُ، الأَصْفَرُ، الأَشْقَر، وهوَ من أعظم الحيّات، قالَ بَعضهم: الثعبان من الحيّات ضخم عَظيم أَحْمَرُ يصيد الفأرَ[6].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (سجن).
(2) الجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: (حبس).
(3) ابن تيمية، مجموع الفتاوى: 35/ 398.
(4) الفيومي، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير: (حيي).
(5) ابن عباد، المحيط في اللغة: (حيي).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة: (ثعب).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن والثلاثون،
سورة الفُرقَان من الآية 43 إلى سورة الشُّعَراء الآية 95
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثامن والثلاثون، سورة الفُرقَان من الآية 43 إلى سورة الشُّعَراء الآية 95
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 38 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-80-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 38 : المجلد الثامن والثلاثون، سورة الفُرقَان من الآية 43 إلى سورة الشُّعَراء الآية 95.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-80-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-5248773 بتاريخ 2024/11/26م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»